روسيا : من باتريشيا بليك

قال لي الشاعر الروسي الشاب اندريه فوزنسنسكي حينما رأيته في موسكو ، في آب (اوغسطس) المنصرم : « كان باسترناك معلمي الوحيد ». وكان فوزنسنسكي قد تلقى عام ١٩٥٤ ، وهو في الواحدة والعشرين ، رسالة من باسترناك يثني فيها على قصائده الاولى ويدعوه لزيارته .

واستأنف فوزنسنسكي قائلا : « منذ ذاك لم اتركه ابداً . فانتقلت الى بريديلكينو وبقيت الى جواره حتى مات . وحين مات شعرت كأن شخصاً خرج من نفسي ، خرج من وجودي . شعرت بوحدة هائلة . رغبت بالموت . ثم فكرت ان من الواجب ان يبقى من يكمل عمل باسترناك . والان لم اعد وحيداً ... »

الحق ان فوزنسنسكي لم يعد وحيداً . فان أهم حدث طرأ على الحياة الادبية في روسيا منذ موت ستالين حتى التطهير الثقافي الاخير ، هو الغياب التدريجي لشعور العزلة المخيف القديم ، لدى الشعراء والكتاب والمسرحيين وجمهورهم . ويبدو هذا التطور الذي تم خلال عشر سنوات اشبه بالمعجزة ، اذا تذكرنا كم نجحت محاولة ستالين لجعل المجتمع الروسي مجتمعاً ميكانيكياً في تعطيل الحوار الفكري والانساني . فلم يكن الشعور بانعدام الثقة ، وعادة الرياء عند الافراد ، الا اعراض مرض كان يعتبر قبلئذ قاتلا : هو غربة الانسان عن حقيقته الخاصة . وكان الارهاب الستاليني ، خلال ثلاثين عاماً ، سائداً ومدمراً الى درجة ان الابطال او المجانين (وربما الشعراء امثال باسترناك) يستطيعون وحدهم ان يواجهوا الوضع الانساني تحت حكم ستالين ، اما بالعقل واما بالمخيلة .

ومع ذلك فقد نشأت نخبة اصيلة من الادباء خلال هذه السنوات العشر ، لا تقتصر فقط على الشباب الذين كانت تجربتهم الستالينية محدودة ، وانما تضم ايضاً بعض الكتاب الاكبر عمراً ، مثل قسطنطين بوستوفسكي ، الذي قاسى طوال الحقبة الستالينية كلها . ويفاجأ الزائر الاجنبي الآتي حديثاً من جو الحياة الادبية الصاخب في نيويورك مثلا او باريس او لندن ، بالروح التي تجمعهم – روح الثقة المتبادلة ، والتشجيع ، والهدف الواحد . وكان هؤلاء الكتاب ، حتى زمن قريب ، يمضون جزءاً كبيراً من وقتهم لتشجيع بعضهم البعض الاخر ، والكفاح من اجل نشر نتاجهم ، والعمل لادخال انصارهم في اتحاد الكتاب ، والدفاع في الصحافة ضد النقاد المحافظين ، والعمل للاتيان بالشبان الموهوبين من المقاطعات الى حيث يقدرون ان ينموا في جو اكثر ملاءمة . ويختلف الحديث مع هؤلاء الكتاب عن احاديث الرياء واللف والدوران ، المألوفة بين المثقفين السوفيات . ومن الواضح ان هذه النخبة الجديدة قد استعادت استقامتها الداخلية التي تفتتت ايام ستالين ، والتي هي ، بالطبع ، الشرط الاول لوجود الادب .

وبالفعل اخذت روسيا ، بعد جفاف ثلاثين سنة ، تنتج ادباً قد يكون اشبه بالبراعم بالنسبة لمستوى الادب الروسي في القرن التاسع عشر ، لكنها مع ذلك براعم رائعة الوعد . وقد بدأ هذا التطور خلال « ذوبان الجليد » عام ١٩٥٦ بين الكتاب الذين كانوا ملتفين حول مجلة « موسكو الادبية » السيئة الحظ ، ولكن خروتشيف تقدمه بقسوة بعد ثورة المجر (« ان يدنا لن ترتجف ابداً ... » ، هكذا هدد الكتاب) . وتلت ذلك مرحلة من الفشل الشجاع ومن النتاج الادبي «للحفظ» . لكن لم يكن يمضي ، طوال السنوات الثلاث الماضية ، شهر دون ان ينشر كاتب شاب او شاعر كتاباً اكثر جرأة في شكله ومضمونه من الكتاب الذي سبقه . وكان القراء الغربيون

يستقبلون بحرارة هذه الكتب ، من رواية وقصة وشعر ، وكانوا ينظرون الى الادب الروسي المعاصر من خلال السرد الوصفي الممل ومواضيع الواقعية الاشتراكية. وقد عملت هذه الكتب ، كل بطريقته الخاصة، على اعادة الادب الروسي الى مجرى الوعي الحديث .

قدم الادب ، اذاً ، لفترة قصيرة شيئاً لا يستطيع اي نظام توليتاري ان يتحمله طويلا : منبراً للتعبير الفردي . ولهذا صار للنتاج الجديد دويّ لا يمكن ان يحدث في الغرب : « لكل جدار باب » — هكذا قال لي احدهم اثناء حفلة شعرية في موسكو في ايلول (سبتمبر) الماضي ، واردف قائلا: « ولقد وجده هؤلاء الشبان » . والذي جرى هو ان النتاج الشعري لشعراء مثل ايفتشنكو وفوزنسنسكي و اخمادولينا وفينوكوروف ، والنتاج القصصي لكتاب مثل كازاكوف واكسبونوف وغيبين ، ومسرحيات فولودين وروزوف، وجدت صداها عند عدد كبير من الناس اكتشفوا اخيراً انهم لم يكونوا وحيدين ، هم ايضاً — وان هناك آخرين يقدرون ان يعبروا عن تطلعاتهم واهتماماتهم واذواقهم ، وان يشاركوا بها غيرهم . وهؤلاء ليسوا ابداً طلاباً كلهم . قال فوزنسنسكي لمراسل «التايمز» اللندنية ان اكثرية قرائه من النخبة التي تعنى بالتكنولوجيا: « وهنالك ملايين منهم في روسيا الان . وكثيرون بينهم يعملون في اجهزة السبوتنيك وغيرها من الالات البالغة التعقيد ، وهم يريدون ان يكون الشعر معقداً ايضاً ، ولا تهمهم الافتتاحيات المقفاة ».

الشعراء هم الاكثر اتصالاً بالقراء السوفيات ، ولعل مرد ذلك الى التجاوب التقليدي مع الشعر في روسيا ، لكن ذلك عائد على الارجح الى ان الشكل الشعري المباشر يلبي الحاجة الملحة والشعر كما قال مالارميه « لغة حالة متأزمة » . لقد بيعت مائة الف نسخة من كل من كتب ايفتشنكو خلال ثمان واربعين ساعة من صدوره . كما بلغ عدد الطلبات لحجز نسخ من مجموعة فوزنسنسكي الشعرية الاخيرة « الاجاصة المثلثة » مائة الف طلب قبل صدورها بشهرين . بينما تغص اقسام الشعر في مكتبات البيع السوفياتية بآثار الشعراء التقليديين التي تظل على الرفوف عاماً بعد عام . ونظراً لان الكميات التي تطبع من كتب الشعراء الشباب لا تكفي ، فقد أدى ذلك الى تأجيج حمى القراءات الشعرية لدى الجماهير، التي اجتاحت روسيا مؤخراً. واروع هذه القراءات حصلت في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي في ملعب لوزنيكي في موسكو، حيث احتشد اربعة عشر الف شخص لسماع اشعار فوزنسنسكي واخمادولينا وبوريس سلوتسكي . وقد صارت القراءات على مستوى اكثر تواضعاً وسيلة التسلية الاولى للمثقفين والطلاب في موسكو ومدن المقاطعات حيث كان الشعراء يذهبون افواجاً . ان مایاكوفسكي ذاته ، الذي امضى حياته متنقلا في روسيا لالقاء شعره ، لم يكن له ابداً جمهور كجمهور هؤلاء الشباب .

ويمكن التعبير عما كان يؤمل عام ١٩٦٢ بكلمات الشاعر الكسندر تفردوفسكي :«يستطيع الانسان ان يكذب لفترة قصيرة، في الفن والادب، كما في الحب ؛ بعد وقت ، طويلا كان او وجيزاً ، تأتي لحظة الصدق وقول الحقيقة». في تشرين الثاني (نوفمبر) من ذلك العام حدث ما يوحي بأن هذه اللحظة حانت اخيراً ، فقد نشرت بأمر خروتشيف نفسه واللجنة المركزية رواية الكسندر سولزهنتسين الكاسحة عن اوضاع معسكر اعتقال في عهد ستالين واسمها: «يوم واحد في حياة ايفان دنيسوفيتش » . وقد وصف خروتشيف ردّ فعل الكتاب في ٨ آذار (مارس) بقوله : « قيل لي ان مخطوطات تصف حياة اناس في المنافي او السجون او المعسكرات تنهال على المجلات ودور النشر ان هذا الموضوع خطر جداً ». ولئن كان تجاوب مئات آلاف القراء مع هذه الرواية لم يصرح به رسمياً، فاننا نستطيع القول ، اعتماداً على التطورات اللاحقة ، ان الرواية اثارت في عقول الكثيرين ذلك الموضوع « الخطر جداً » ، وهو مسؤولية

البيروقراطية الحاضرة عن الستالينية . والظاهر ان خروتشيف تأخر في ان يتعلم درس كل حاكم روسي منذ نقولا الاول ، وهو دور الادب في ايقاظ ضمير الشعب والكشف عن اساس الطغيان .

واجه فنانو روسيا الخلاقون مرحلة التطهير الاولى يحو من الثقة والصمود امام الرجعيين . فمنذ اول كانون الاول (ديسمبر) عندما زار خروتشيف معرض الفن في موسكو ، تعالت صرخات الرجعيين ثانية مع كلمات خروتشيف : « هذه الرسوم لم ترسم بيد انسان بل بذنب حمار! » وفي اول اجتماع للجنة العقائدية التابعة للجنة المركزية، الذي عقد سراً في كانون الاول (ديسمبر) الماضي بحضور اربعمائة فنان وموسيقي وكاتب ، احتج ايفتشنكو ضد التهمة الموجهة الى ارنست نايزفستني اشهر نحاتي روسيا، من ان انتاجه الفني « شكلي» غير وطني . وتردد ان ايفتشنكو قال : «عاد نايزفستني من الحرب وفي جسده اربع عشرة رصاصة. وارجو ان يعيش سنوات عديدة وان ينتج مزيداً من آثاره الفنية الجميلة» . اما خروتشيف فقد اجاب قائلا : « من الامثال الشائعة انه لا يقوّم ظهر الاحدب غير القبر » . وكان ردّ ايفتشنكو : « أرجو ان نكون قد تخطّينا الزمن الذي كان يستعمل فيه القبر كوسيلة للتقويم » .

وفي الاجتماع ذاته تلا ليونيد اليشيف ، رئيس اللجنة العقائدية ، تلا (بغية تفنيدها) رسالة احتجاج موجهة الى خروتشيف وموقعة من شخصيات فنية بارزة ورد فيها ما يلي : « اذا لم يكن هنالك تنوع في وجهات النظر الفنية ، قضي على الفن... اننا نرى الآن كيف ان الفنانين الذين سلكوا خطاً واحداً - الخط الوحيد الذي ازدهر ايام ستالين والذي لم يسمح للآخرين ان ينتجوا او او حتى ان يعيشوا - قد بدأوا يفسرون ما فاته في المعرض ... اننا نطلب اليك ايقاف هذه الرجعة الى الاساليب القديمة المخالفة لروح العصر الذي نعيش فيه ».

كان بين موقعي هذه الرسالة الكاتبان سيمونوف واهرنبورغ ، والموسيقار شوستاكوفيتش ، والمخرج السينمائي روم - ولم يكن يجمع بين هؤلاء حتى اليوم غير تنازلاتهم ايام ستالين . وتبين فيما بعد ان بين موقعي رسالة ثانية شبيهة بهذه، الكسي سركوف سكرتير جمعية اتحاد الكتاب السابق الذي كان يعتبر احد اكثر الستالينيين جميعاً عناداً !

وقد تجلى مدى قلق الحزب فيما يتعلق بهذه النخبة الجديدة من المثقفين في الخطابين اللذين القاهما اليشيف في ١٧ و٢٦ من كانون الاول (ديسمبر): « يعتبر الدفاع عن مواقف الحزب الصحيحة ، في بعض المناقشات التي تجري بين المثقفين، لا اخلاقياً وبالياً ؛ فمن يدافع يتهم بالرجعية والمحافظة والمذهبية والتعصبية وضيق الافق والتأخرية والستالينية، الخ. ان محاربة نتائج عبادة الشخصية دفاعاً عن مثل الحياة اللينية شيء ، وضرب حريتنا وحياتنا ، وبمعنى آخر ضرب الاشتراكية والشيوعية ، تحت ستار محاربة هذه النتائج ، شيء آخر » .

ومهما كان هذا الاعلان دليل شؤم ، فانه يظهر الان معتدلا في ضوء ما تلاه . فلقد كان « نذيراً» للمثقفين ، لكنه أكد لهم انه لن يكون هنالك ضحايا . بل انه دعا الكتاب لمشاركة الحزب في القضاء على « نتائج عبادة الشخصية في كل نواحي الحياة » . ولسوء الحظ ، اعيد في الفترة التي تلت هذين الخطابين بعض اكثر الستالينيين شهرة وعناداً الى مراكز مهمة في الفنون . فقد ترك مفوضو الثقافة الستالينيون والمذهبيون والكويتبون ، واحداً اثر الاخر ، مهماتهم الثانوية وحلوا محل رجال « ذوبان الجليد » في لجان تحرير دور النشر والصحف والمجلات وقيادة جمعية اتحاد الكتاب في موسكو واكاديمية الفنون والمؤسسة الرسمية للسينما. حتى الكسندر جيراسيموف ، رسام ستالين الخاص طيلة عشرين عاماً والبالغ من العمر الثانية والثمانين، ظهر من جديد على المسرح. فقد وجد جيراسيموف، الذي كانت رسومه المختلفة لستالين في مختلف الاوضاع قد اختفت من المتاحف ، المكان

والزمان الملائمين ليثأر من الاشخاص والمطبوعات التي زعم انها شجعت الفن الشكلي – وبينها مجلة « اوغونيوك » التي يحررها سوفرونوف ، وهو محافظ بارز ، ومجلة «ندليا» التي يحررها ادجوبي ، صهر خروتشيف . وقال جيراسيموف : « ان على الانسان ان يسمي الاشياء باسمائها وان يذكر حقائق واسماء » ، وكأنه بقوله يوضح لكل شخص شريف في روسيا الا طائل من وراء ذلك .

وسط هذه الفوضى ذهب ايفتشنكو في رحلة الى المانيا الغربية وفرنسا ، وهو واثق كما يبدو بأن التحرريين سينتصرون في النهاية على المذهبيين. وكتب في جريدة « الاكسبريس » الفرنسية الاسبوعية ، بموافقة السفارة الروسية في باريس كما يبدو ، « سيرة شخصية قبل الاوان » اورد فيها بعض الملاحظات المهمة حول السخرية والكذب والانانية واللا سامية عند المذهبيين الذين لم يخونوا ، كما يقول ، الثورة فحسب بل روسيا ذاتها ايضاً . وتدل اقوال اخرى له على التهور اكثر مما تدل على الثقة : « جميع الطغاة في روسيا اعتقدوا ان الشعراء شر اعدائهم » . ولعل اكثر اقواله تهوراً قوله في مؤتمر صحافي في باريس في ٢١ شباط (فبراير): « ... حينما تذكر تلك الفترة الستالينية لا افكر في ستالين وحسب . انني افكر ايضاً بشركائه ، والذين ساعدوه ، والذين احياناً دفعوه ، والذين لم يحركوا ساكناً » . وفي الرابع من آذار (مارس) استدعي ايفتشنكو بسرعة الى موسكو ليواجه المذهبيين ، الذين كانوا ينتظرونه مكشرين عن انيابهم – وليواجه نيكيتا خروتشيف نفسه .

في الثامن من آذار (مارس) القى خروتشيف خطبة تتألف من ١٥ الف كلمة ، وقد كشف فيها للشعب عن ذوقه الشخصي فيما يتعلق بانواع الفنون كلها . ومهما كانت اهمية اذواقه هذه ، فان الدوافع السياسية التي تجلت في خطابه هي اهم بكثير لانها تحوي ايضاحات لاسباب التطهير . فقد برزت الخطوط العامة لاهتماماته الرئيسية وراء ذلك الحشد من الكلام.

اول هذه الاهتمامات ، بالطبع ، تفكك الايدلوجية ورقابة الحزب في حقل الفنون . اذ قال ان كل من يزعم بعد الان بان الشكلية والتجريدية تستطيعان «ان تتعايشا تعايشاً سلمياً» مع الواقعية الاشتراكية سيعتبر خائناً ومعادياً للشيوعية الاهتمام الثاني هو تباعد الشباب عن كتاب الجيل السابق الذين يعتبرون ملوثين بالستالينية ان لم يكونوا متفقين تماماً معها . ان سلطة الحزب تهدد عندما يتحمس الشباب السوفياتي لشعر الشباب اكثر من المتقدمين. ونفي خروتشيف المتكرر لوجود اي فارق بين « الاباء والابناء » هو دليل تخوفه . فندد ، مثلاً ، بالشاعر روبرت روزدستفنسكي البالغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً ، لانه قال بان « مشاعر الشباب يعبر عنها جماعة من الكتاب الشباب فحسب ، وان هؤلاء هم معلمو شبابنا » ؛ وعلق خروتشيف على ذلك : « هذا ليس صحيحاً قطعاً : الحزب هو الذي ربى شبابنا ؛ انهم يتبعون الحزب ويرون فيه معلمهم وقائدهم » .

وكان اهتمام خروتشيف الثالث والاكثر اهمية يتناول المسألة التي اثارها ايليا اهرنبورغ في فصل من مذكراته . وقد تبين فيها ان ايليا اهرنبورغ كان يعرف بامر الاشخاص الابرياء الذين سجنوا ايام ستالين ، مشيراً بذلك عن طريق الاستنتاج (او سهواً) الى ان آخرين في مناصب ارفع كانوا ولا شك ايضاً عارفين . وطبعاً لا يمكن ان يحتمل خروتشيف هذا التلميح بينما ترتكز سلطته على زعمه بجهل جرائم سلفه جهلاً تاماً . لتوكيد ذلك اضطر الى التحدث عن الدموع التي ذرفها عند نعش ستالين ، والى وصف عهد ستالين بانه « السنوات الزاهية السعيدة ، سنوات الصراع والانتصارات ، سنوات سيادة الافكار الشيوعية » .

هكذا بدأت فؤوس الستالينية – الكلاب المسعورة التي افلتها خروتشيف – بتفجير غضبها وحسدها المكبوتين على كل شاب كان موضع اعجاب الجمهور في السنوات الاخيرة – وعلى الاخص ايفتشنكو وفوزنسنسكي. فراحت تنادي في الصحافة

واجتماعات الكتاب في انحاء البلاد بوضع حد لعهد المائة الف نسخة والتقريظ والرحلات الى خارج البلاد التي استأثر بها الكتاب الذين سخروا من الحزب ولعبوا دور البورجوازي الغربي العقائدي («واضعين احدى القدمين في شارع غوركي والثانية في برودوي») بكتاباتهم «الركيكة ، المبالغ في تقديرها ،القذرة ، غير الواقعية» . وحسب اسلوب التطهير التقليدي طالبوهم بالتراجع . لكن النتائج التي حصلوا عليها هذه المرة لم تكن مرضية ، اذ لجأ الكثيرون الى الصمت ، وانكر نكراسوف ان يكون مخطئاً ، واذعن آخرون امثال فوزنسنسكي وروزدستفنسكي بطريقة غامضة او ساخرة . اكسيونوف وايفتشنكو ، وحدهما ،كتبا ما يشبه الاعتذار بسبب الضغط الهائل الذي تعرضا له . كانت الخطوة التالية تشتيت الكتاب ، واعلن ان فوزنسنسكي يمضي ايامه في معامل منطقة فلاديمير ، وان اكسيونوف ذاهب الى موقع بناء في سيبيريا ، وان روزدستفنسكي قد تغلغل بين الجماهير . واضح ان خروتشيف لم يتذكر «سنوات ستالين الزاهية السعيدة » عبثاً .

الورطة التي وقع فيها خروتشيف هي ان اللا ستالينية قد اثارت بين الروس توقعات واسئلة لا يمكن للقيادة الحالية ان توافق عليها او تجيب عنها . ولا شك ان الستالينية صارت تعبيراً للذم مطاطاً : سلاحاً يتوقف تأثيره على من يحمله والى من يوجه عندما حمله خروتشيف وزملاؤه اعانهم على التخلص من منافسيهم على السلطة ، واعان في الوقت نفسه على دعم شرعية الحكم الذي « رفع القناع عن جرائم ستالين وعاد الى مبادىء لينين» . كما حاولت القيادة الحالية ، باسم اللا ستالينية ، ان تخلص البلاد من مؤسسات واشخاص حالوا دون منافسة روسيا للعالم الحديث ، كنظام العمل الاستعبادي غير المثمر ، وجيش البيروقراطيين العاجزين الذين كانوا يقفون في طريق التقدم العلمي . اما بالنسبة للنخبة المثقفة المتحررة فقد وجهت تهمة الستالينية الى اعداء تلك النخبة: المذهبيين والتعليميين والفريسيين والمرائين الذين ما تزال فلسفتهم تلخص بعبارة ينطق بها موظف في كتاب من القرن التاسع عشر : « ما لا افهمه خطر على الدولة » . واكثر من هذا ، ليست الستالينية بالنسبة لهم مجرد قضية مسلكية وانما هي قضية اخلاقية . وقد تحدث قسطنطين بوستوفسكي بلسان النخبة المثقفة جميعها عندما اتهم في احد الاجتماعات الخاصة لاتحاد كتاب موسكو عام ١٩٥٦ – اتهم بقايا البيروقراطية الستالينية « بالخيانة والوشاية والاغتيال الخلقي والاغتيال الخالص » . وكيف ما فسرت كلمة الستالينية فان روحها المضللة الواضحة الخانقة تبقى المشكلة الرئيسية في البلاد .

اذكر بحماس خاص المشهد الذي رأيته في الصيف الماضي عند مدخل قاعة محاضرات حيث كان بضع مئات من الطلاب يضجون مطالبين بأن يتاح لهم الاستماع الى القاء الشعر . كانت تلك القراءة الشعرية واحدة بين سلسلة قراءات حضرتها في القاعة العامة في متحف الصنائع والفنون في موسكو . وكانت تبدأ في الساعة الخامسة بعد الظهر ،وتستمر حتى منتصف الليل دون ان تتخللها غير فواصل قصيرة كانت القاعة ملآنة ، تغص بسبعمائة شخص ، معظمهم من طلاب الجامعة والمعاهد المختلفة التي وزعت فيها البطاقات . وكان فريق كبير منهم قد احضر مجموعات شعرية كانوا يتتبعون فيها الشعر اثناء الالقاء وكانت على المسرح ستارة مخملية زرقاء كتب عليها بأحرف كبيرة: « الشيوعية شباب العالم ، لذلك يجب ان يبنيها الشباب » . وامام الستارة كان يجلس اربعة شعراء: ايفتشنكو وفوزنسنسكي وبولات اوكودزافا (الشاعر الشعبي نصف الجيورجي نصف الارمني الذي يرافق اشعاره بالعزف على القيثار) وشاعر آخر أقل شهرة هو سيرجي بوليكاربوف .

ابتدأ الالقاء فوزنسنسكي ، البالغ من العمر تسعة وعشرين عاماً . وراح طوال ساعة تقريباً

يقرأ القصيدة تلو القصيدة بصوت جهوري مدوب. ومال مستمعوه الى الامام ليلتقطوا سيل لغة لم تسمعها روسيا في حياتهم . كان جلياً ان هذا اول شاعر حديث في روسيا . وفوزنسنسكي بارع في التكنيك ، يبني البيت من مجموعة من الاصوات والقوافي والحروف المتجانسة موزعة توزيع الاصوات في الاوركسترا بشكل يخدم الفكرة الاساسية . (وهو يقول : « ليس الشكل هو المهم ، يجب ان يكون الشكل واضحاً ، لا قرار له ، مثيراً ، كالسماء التي لا يستطيع غير الرادار ان يشعر بوجود طيارة فيها » .)

ان ابرز ميزات اسلوب فوزنسنسكي هي سرعة النغم والهدف وتكررهما في القصيدة الواحدة واحياناً السطر الواحد . وهو رقيق وذو دعابة وساخر وتهكمي . انه بارع التهكم ، وهو لتحقيقه لا يكتفي بعناصر التكنيك (مثل التجاور والجناس والتقفية الداخلية حتى لو كانت احدى القافيتين كلمة فصحى والثانية عامية) ، وانما يعتمد ايضاً على تآلفات الافكار المرعبة والتخيلات والصور .

وحتى قبل ان يفجر التطهير الثقافي سيلاً من التجريحات ضد فوزنسنسكي كان النقاد المحافظون يتهمونه غالباً بالشكلية والغموض .

وفوزنسنسكي بالنسبة لأعدائه مراوغ ، لكنه بالنسبة لقرائه ومحبيه الكثيرين جداً اكثر كتاب روسيا وضوحاً . (حينما عرفني عليه ايفتشنكو قدمه قائلا : « هوذا شاعر حقيقي . لم تقم شهرته على الاثارة - كالبعض ... ») . ويتحدث فوزنسنسكي غالباً عن مسؤوليته تجاه جمهوره الذي منحه ثقته فيقول : « حينما يكتب الانسان يشعر برسالته النبوية الى العالم. ان مهمة الشاعر الروسي اليوم هي النظر العميق الى دخيلاء الناس . وعندما اقرأ شعري لجمهور كبير ، اشعر بأن انفعالاتهم الملموسة واعماقهم تتكشف لي عن روح الانسان ، التي لا تعود مخبوءة وراء النوافذ المغلقة ، وانما تتفتح كلياً كامرأة قبّلت لتوها». ولقد بلغ تجاوب الجمهور تلك الليلة مع فوزنسنسكي حداً لم اشهده في الغرب ، حتى في المسرح او قاعات الموسيقى ، فكيف بالامسيات الشعرية ! وفي حين كان فوزنسنسكي يقف ، باسماً والعرق يسيل فوق وجهه كالدمع ، والجمهور يستعيده مرة تلو مرة ، رأيت رجالاً ونساء يقفون والدمع ملء عيونهم يهتفون شاكرين .

رثيت لحال الشاعر الذي سيلقي بعده ، لاننا سنشهد الانحدار بعد القمة . لكن لا : فان بولات اوكودزافا الذي ظهر امام المذياع مرحاً مداعباً قيثاره ، اوحى بحماسة من نوع آخر وبدد التوتر الذي كان يسود القاعة. وبولات في السابعة والثلاثين من العمر ، اسمر ، خفيف الشعر ، دقيق الشاربين، اشتهر في روسيا بأغانيه المسجلة الماجنة (التي تنتشر كثيراً بشكل اشرطة) ، وبأشعاره الشجية الهازلة التي يغنيها في المناسبات العامة على طريقة « المنشدين الفرنسيين » . وبدا ان المستمعين يحفظون اغانيه غيباً ، وكانوا يطلبونها معددين اسماءها . وعلى الرغم من بساطة المحتوى في اشعار اوكودزافا فانها تتصف بالعذوبة ، والفكاهة ، والحدة - وهي صفات قلما تظهر في الادب السوفياتي.

وجاء دور ايفتشنكو في الالقاء . فعلت عند ظهوره صيحات « مرحباً بزينيا ! » ، وتدفق سيل قصاصات ورق كتب عليها المعجبون اسماء قصائدهم المفضلة . واتضح للحال ان شعبية هذا الشاب اكثر من مجرد شعبية ادبية: فمع ان ايفتشنكو موهوب شعرياً فان جرأة بعض مواضيعه هي التي سببت شهرته المحلية والعالمية . قال لي احد المعجبين المأخوذين به :« ان زينيا كولومبس جديد . لقد شق طرقاً ما كان احد يجرؤ على ان يحلم بها ، ثم اقتفى الجميع اثره » . وهو ، بالاضافة الى ذلك ، شاب وسيم جذاب ، وكان يرتدي قميصاً رياضياً على الطريقة الامريكية تحت بذلة رمادية . وردّ خصلة الشعر الشقراء عن جبينه ولوح للمستمعين .

القى قصيدة ساخرة لم يوفق الى نشرها ، وهي « وغد في حمام البخار »، كما القى بضع قصائد تعظم كوبا في عهد كاسترو . والقى ايضاً قصيدته

المشهورة الآن « خلفاء ستالين » ، التي نشرتهـا « البرافدا » بعد ذلك بشهرين . ولم يجرؤ اي ناشر على الدنو منها طوال سنة – والحقيقة ان ايفتشنكو كان قد خضع للرقابة وقت تلك القراءة الشعرية . كانت القصيدة في صورتها السابقة تبدأ لحظة موت ستالين : ينهض خلفاء ستالين ، الذين كانوا منكبين على سريره منذ لحظات ، يرقصون حول جثته ويلعنونه ؛ وفجأة يفتح ستالين احدى عينيه فينطرحون ثانية على الارض يسألون عفوه ! وحتى بعد ان اعملت الرقابة مقصها في القصيدة ظلت فيها عبرة بارزة : ستالين انما يتصنع الموت تصنعاً ، وخلفاؤه يلعنونه في العلن ، وفي السر يتوقون الى عودته . لذا يناشد الشاعر السلطات قائلا : «ضاعفوا الحرس حول قبر ستالين، مرتين، ثلاثاً – لئلا ينهض ثانية !» وقد سببت قراءة هذه القصيدة تلك الليلة هياجاً غريباً .

لا ينحصر جمهور القراء السوفيات بطبيعة الحال بالمعادين للستالينية والمتحمسين للاستماع للقراءات الشعرية : هناك عدد لا يحصى من المواطنين الذين بقي ذوقهم اسير ما درسوه من القوافي واخذوه عن الكراريس التي ظلت محسوبة على الادب حتى الاونة الاخيرة . فان « الاوغاد » الذين وصفهم ايفتشنكو بأنهم يتنهدون ويتحسرون على ستالين يحدون اليوم ما يريدونه من الكتب المطالعة ، وعلى الاخص مؤلفات فزيغولود كوشيتوف الذي تطبع من رواياته مئات الالاف من النسخ . والسر في هذا الانتشار واضح . فان روايات كوشيتوف تتضمن خلاصة التنكر السوفياتي للفكر والثقافة: فالعدو هنا هو دائماً النخبة المثقفة – عصابة من الاوغاد المنحرفي العقائد الذين يعملون على تهديم آثار شيوعي صالح مثل دنيزوف ! لذا كان من الطبيعي ان يتزعم كوشيتوف جماعة المذهبيين الغلاة في اتحاد الكتاب ، وان يكون اكره الناس الى الكتاب المتحررين وجمهورهم . في نيسان (ابريل) ١٩٦٢ – واصحاب النزعات الحرة في اوج تأثيرهم على السياسة الادبية – لم يرشح كوشيتوف حتى لانتخاب فرع موسكو في اتحاد الكتاب . لكن حتى حينما كان اثر الرجعيين يتقلص نجح كوشيتوف في الاحتفاظ بتأثيره الكبير بوصفه رئيساً لتحرير جريدة « اوكتيابر » ، ونال وسام لينين سنة ١٩٦٢ لمناسبة عيد ميلاده الخمسين .

قليلون هم الكتاب المتحررون الذين اقاموا صلات شخصية مع كوشيتوف . فقد ظل في معزل عنهم ، لا يظهر ابداً كما قيل لي في مطعم اتحاد الكتاب او في اي مكان الا اثناء المهمات الرسمية . ولم يقابله صحفيو موسكو ،الروسيون والاجانب، الا نادراً . لذلك فوجئت حين اتصلت به لاطلب منه حديثاً ، باستعداده وسرعة قبوله . التقينا في في اليوم التالي فكانت مفاجأتي الثانية ، وهي ان مظهر كوشيتوف يختلف تماما عن مظهر البروليتاري الخشن الذي تعكسه رواياته . فهو وسيم الطلعة باستثناء شفتيه الرقيقتين ، دقيق الملامح ، نحيل القوام. وكان يرتدي بذلة فاتحة وقميصا ابيض وربطة عنق مخططة .

حياني بلطف وبما يشبه الامتنان . وسرعان ما اتضح لي ان عزلة كوشيتوف لم يقصدها هو . وفي خلال عبارات المجاملة في بداية الحديث ، سألته عن سبب بقائه في المدينة في شهر آب (اوغسطس) بينما غادرها الكثيرون الى العطلة، فأجاب: « آها ! اذاً لهذا جئت لمقابلتي ! ما كنت تطلبين مقابلتي لو كان كتاب موسكو هنا ! » وبعد قليل ، اخبرني بأن الصحفيين قلما يزورنه – « وخاصة النساء امثالك... فلا ارى الا الطامحات الى الكتابة – ربات البيوت اللواتي يطبخن بيد ويكتبن الشعر باليد الثانية ...»

كان كوشيتوف متلهفاً للكلام،لكنه دون شك لم يكن ينوي ان يقول شيئاً . لم ار في حياتي شخصاً يواجه الاسئلة المحرجة بمثل هدوئه ويتخلص منها بمثل براعته . كانت اصابعه الطويلة الجميلة التي تنقر على الطاولة المغطاة بالبساط الاخضر ، هي وحدها التي تفصح عن بعض الاضطراب . وحتى

المرة الوحيدة التي اظهر فيها الغضب بدت متعمدة. قال : « هذا كذب ... » حينما سألته رأيه في اتهامه بأنه « رجعي وستاليني وعدو المثقفين ».

« ان مجلتي (نوفي مير) و(المجلة الادبية) هما وحدهما اللتان فسرتا روايتي على هذا الشكل . ولا اقدر ان اعرف السبب . فكل النقـــاد الآخرين ومعظم قرائي فهموا ان الرواية موجهة ضد الستالينية. حتى انني تلقيت رسالة من سيدة امريكية تقول فيها انني ساعدتها على فهم الدولة السوفياتية بشكل افضل، باتباعي قواعد الواقعية الاشتراكية». اما فيما يتعلق بالتهمة الموجهة اليه بأنه عدو الثقافة ، فقد قال: « لنجرِ بعض الحسابات . خذي روايتي (الاخوان ارشوف) » ، واخرج اوراقـــاً من جيبه واجرى بعض الحسابات : « سأسجل اولاً الشخصيات السلبية . هناك اربعة : مخترع ، مخرج مسرحي ... الخ ، وهم جميعاً مثقفون . اما الشخصيات الايجابية فلاحظي ان عددهم خمسة — وكلهم مثقفون ايضاً. وبكلمة اخرى ، ان المثقفين الايجابيين اكثر من السلبيين ! »

وسألته عما يظنه يحدث للادب الروسي ان لم يعد متوقعاً من الكتاب ان يصفوا الناس على اساس الشخصيات الايجابية والسلبية . ماذا لو هجرت الواقعية الاشتراكية وسمح للكتاب ان يصفوا الواقع الذي يرونه هم بانفسهم ؟ فأجاب قائلاً : «هذا لن يدوم. والواقع ان بعض كتابنا يحاولون الشيء ذاته الذي ذكرته متبعين الفكرة الغربية القائلة بان الحياة يجب ان توصف كما هي . لكن هذا ليس بالفن ، بل هو نهاية الفن . اكيد ان على الفن ان يعبر عن الحقيقة ، ولكن بطرق معينة . يجب ان يكون هدف الفن السوفياتي اليوم هو تكوين الوعي عند الشعب بينما يجري بنـــاء القاعدة المادية للشيوعية » . ثم بدأ كوشيتوف بمحاضرة طويلة عن برنامج الحزب في السنوات العشرين المقبلة . ثم رجع اخيراً للكلام على الادب فقال : « الفن العظيم الذي يعلّم ويرفع هو ، وحده ، الفن الذي تحبه فعلاً الاكثرية الساحقة من الشعب » .

واشرت الى ان الفن العظيم من اي نوع كان يحتاج عادة في الغرب الى وقت لتفهمه اكثرية الشعب ، والى ان معظم الناس يفضلون للأسف ما هو اكثر ابتذالا في ثقافتنا . وردّ قائلا : « عندما تتحدثين عن الابتذال اتصور انك تعنين شخصاً مثلي ... »

وماذا عن باسترناك؟ سمعت شائعات في موسكو تقول ان رواية « الدكتور جيفاغو » قد تنشر قريباً . وقال : « لا احب ان ينشر ذلك الكتاب بشكله الحالي ، فهو يذكرني ببعض الروايات التي نشرها في الخارج بعد الثورة عـــدد من الروس البيض الذين آلمهم انه لم يعد باستطاعتهم الاستمرار في الحياة كما في الماضي . الثورة مقدسة ، بالنسبة لي ولغالبية المواطنين السوفيات . ماذا يكون موقفك تجاه كاتب مثل باسترناك يصف شعبك بانه عصابات ؟ لكنكم بالطبع ، معشر الاجانب ، ترون ان هذه الرواية مدهشة ، سواء منكم الذين قرأوها والذين لم يقرأوها . استطيع ان اقول لك انها كتبت باسلوب ركيك جداً ، مع انها ربما بدت حسنة في الترجمة . لغتها شنيعة ، وكل ما فيها كذب » .

هنا نهضت . كان حديثنا قد بدأ منذ اربع ساعات، وقد اتعبني الكره الذي ظهر منه للآخرين والشفقة التي بدأت احس بها تجاهه . وودعته في الردهة ، فوضع يده على كتفي وقال : « ارأيت، لست سيئاً كما كنت تتصورين. ارجوان تخبري قراءك بانني لا آكل الناس، ولا ابتلع الاطفال بلقمة واحدة! »

ذلك المساء تعشيت مع جماعة من الشبان المثقفين. واخبرتهم عن حديثي مع كوشيتوف وكررت لهم ملاحظته الاخيرة . فعلق احدهم بقوله : « ليس صحيحاً . انه يأكل الناس. ولا بد انه جائع كثيراً بعد اربع ساعات من الكلام لا غير ... »

اذا كان كوشيتوف شيطان النخبة المثقفة المتحررة، فان باسترناك ملاكها. يقول فوزنسنسكي في قصيدته عن باسترناك :

« لم يحملوه الى ضريح ،

بل الى العرش جلوه » .

ان كل شاعر او كاتب شاب في موسكو يتحدث عن باسترناك باكبار . وهناك مئات الشباب يذهبون اسبوعياً الى المقبرة التي دفن فيها في ظل ثلاث صنوبرات باسقات. هنالك مقعد قبالة الضريح يجلسون عليه ويقرأون اشعاره (او اشعارهم) لبعضهم البعض . وفي الصيف توضع حول ضريحه كميات كبيرة من الليلك والورد والاقحوان ، بينما تغطي الضريح ازهار الثالوث . ويصف فوزنسنسكي ضريحه بقوله : « انه اكثر مكان في العالم جمالا ووقارا ...»

ماذا يمكن ان يعني باسترناك لهؤلاء جميعاً ؟ اكبرياء الرجل الذي لم يساوم قط ايام ستالين ؟ ألشعور معه لما قاساه ؟ ام التقدير الخالص لشعره ؟ انه ، على اية حال ، يعني هذا كله واكثر بالنسبة للكتاب الشباب. انه يمثل محوراً من محاور انهماكاتهم الرئيسية ، الا وهو اعادة خلق الماضي . ان نتاج باسترناك طيلة ٤٧ عاماً بين ١٩١٣ و ١٩٦٠ كان جسراً امتد فوق السنوات الستالينية العقيمة ليكون صلة الوصل بينهم وبين ماضيهم الادبي . وقد عبر احد الكتاب عن ذلك بقوله : « اذا لم نستطع ان نعيش من جديد قصة حياتنا التي انكرت علينا حتى الآن ، فلا يمكن ان نتابع انتاجنا » . ويجهد الكتاب لاقامة نوع من الاتصال مع الماضي ، لا مع القرن التاسع عشر بل مع النقطة التي توقف عندها تاريخهم الادبي . وهم يعودون من خلال باسترناك (وآنا اخماتوفا) الى اسلافهم المعلمين الكبار في الشعر ، بلوك وتسفيتايفا وخليبنيكوف ومندلشتام ، وفي النثر بابل واوليشا .

لهذا السبب اثارت مذكرات الكتاب الشيوخ مثل باوستوفسكي واهرنبورغ اهتماماً لدى الشباب يتجاوز قيمتها كوثائق . فان تصويرهم للحماسة المبدعة في حقبة ظلت مطموسة الى وقت قريب ، وذكرياتهم الحميمة عن كتاب مثل بابل ومندلشتام اللذين ماتا في السجن ، تشكل عناصر ثمينة لاعادة خلق الماضي . ومع ذلك فان مذكرات اهرنبورغ استقبلت دون حماسة . وليس هناك تقريباً اي كاتب او اي رسام حديث ينكر الدور الذي لعبه اهرنبورغ في احياء جانب من الادب والفن الروسيين بين ١٩١٠ و ١٩٢٠ . الا ان هناك شعوراً عاماً بين النخبة المثقفة المتحررة بان هذه المذكرات بما اغفلته وحرفته من الوقائع لم تصور تاريخهم بصدق. وقد قال لي اهرنبورغ نفسه في موسكو : « قلت الحقيقة ، لكنها ليست الحقيقة الكاملة » .

ليست العودة الى الماضي رحلة عاطفية . فما ينشده الكتاب هو نقطة انطلاق يؤدون ، بدءاً منها ، رسالتهم الرئيسية : بعث اللغة ، والاعادة للالفاظ عبء المعاني التي افسدها ما سماه باسترناك « بقوة اللفظية البراقة » . فلم تفسد كلمات مجردة مثل « حرية ، عدالة ، حقيقة » وحسب ، وانما خمدت ايضاً لغة الحياة نفسها . وهذا هو اخطر اتهام تضمنه كتاب « الدكتور جيفاغو » .

ما من كاتب اصيل في روسيا اليوم لا يهتم بترسيخ سيادة اللغة على طغيان الرطانة. وهذه بالطبع مهمة تتناول اساس الاستبداد . والذين يضطلعون بها يستمدون حافزهم من الروسيين الواعين الذين لم يعودوا يهتمون «بالالفاظ البراقة» ، وانصرفوا عنها الى لغة الرمز والخيال من اجل الحقائق التي ينشدونها. ولهذا شعر حكام روسيا بانهم مضطرون ان يفرضوا على الكتاب ، لا المواضيع فحسب ، وانما اساليب الكتابة ايضاً . ولهذا حاولوا ان يغروا الكتاب بمختلف الوسائل آملين ان يأسروهم اليهم ، هم ونفوذهم المعنوي . واذ فشلوا في ذلك قرروا الآن ، كما يبدو ، تهديم لا اشخاصهم بل كرامتهم . فقد اذلوهم امام الشعب ، وشتتوهم ، واسكتوهم. لكن هناك شيئاً واحداً لا يستطيعون ان يفعلوه : هو طمس اقوال الكتاب في روسيا طوال عشر سنوات او طمس نتائج تلك الاقوال .

قال ايفتشنكو في باريس، قبل اشهر، متنبئاً : « ربما كان على جيلنا ان يكون جيل الضحايا : فنكون اشبه بفرسان نابوليون الذين القوا بأنفسهم في النهر ليكونوا جسراً يعبر فوقه الآخرون » .